المحاضرة الثامنة سمو الأخلاق في ضوء السنة النبوية سنة ثالثة كتاب وسنة

تعريف الأخلاق في اللغة والاصطلاح

أولا: تعريف الأخلاق في اللغة وعند علماء السلوك:

1-الخُلُق في لغة العرب: هو الطَّبْع والسجيَّة، قال الفيروزآبادي: "الخُلق: بالضمِّ، وبضمتين: السجية والطَّبع، والمروءة والدين"[1].وقال ابن منظور: "الخُلُق: الخليقة؛ أعني: الطبيعة، والجمع: أخلاق، لا يُكسَّر على غير ذلك.والخُلُق: بضم اللام وسكونها، وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصَّة بها، بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلَّقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثرَ مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة؛ ولهذا تكرَّرت الأحاديث في مَدْح حُسْن الخُلُق في غير موضِعٍ"[2].

2-الأخلاق في الاصطلاح وعند علماء السلوك: تعرف الأخلاق بعدة تعاريف منها:

أ-عرَّفها الغزالي الخُلُقَ بقوله: "الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تَصدُر الأفعال بسهولة ويُسرٍ من غير حاجة إلى فِكْر ورويَّة"[3] .وتعرف "بأنها حالة نفسية تترجم بالأفعال" أي أن الأخلاق، لها جانبان؛ (جانب نفسي باطني، وجانب سلوكي ظاهري) فالسجايا هي الطباع. والسلوك هو الفعل المترجم لهذه الطباع[4].

ولذا ينبغي التنبه إلى أن الصفات المستقرة في النفوس ليست كلها من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز ودوافع لا صِلَة لها بالخُلُق، ولكن الذي يَفصِل الأخلاق ويُميِّزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها في السلوك قابلةً للمدح أو للذم، فبذلك يتميَّز الخُلُق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية، فإن الغريزة المعتدلة ذات آثار في السلوك، إلا أن هذه الآثار ليست مما يُحمَد الإنسان أو يُذَم عليه.وبهذا الإطلاق يشمل الخُلُق الحسن والقبيح، والمحمود والمذموم، وإن كان يَغلِب إذا أُطلِق عن التقييد إلى الخُلُق الحسن[5].

ب-وعرفها الطاهر بن عاشور: "خُلُق بضمتين: فهو السجيَّة المتمكِّنة في النَّفْس، باعثة على عمل يُناسِبها من خير أو شر، وقد فسِّر بالقوى النفسية، وهو تفسير قاصر، فيشمل طبائع الخير وطبائع الشر؛ ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يُضَم إليه فيقال: خُلق حسن، ويقال في ضده: سوء الخُلُق، أو خُلُق ذميم، فإذا أُطلِق عن التقييد انصرف إلى الخُلُق الحسن"، ثم قال: "والخُلُق في اصطلاح الحكماء: مَلَكة؛ أي: كيفية راسخة في النفس؛ أي: متمكِّنة في الفِكْر، تَصدُر بها عن النفس أفعالُ صاحبها بدون تأمُّل.

---

[1] القاموس المحيط؛ الفيروزآبادي (ص: 793)، دار الفكر - بيروت

[2] لسان العرب؛ ابن منظور (10: 86، 87)، دار صادر - بيروت

[3] إحياء علوم الدين؛ الغزالي (3: 47) - إحياء التراث

[4] علم الأخلاق الإسلامية أ د. مقداد يلجن ط2 نشر دار عالم الكتب ط دار الفكر بيروت ص34.

[5] الأخلاق الإسلامية وأسسها؛ عبدالرحمن حبنكة الميداني (1: 10، 11)، دار القلم - سوريا.

فخُلُق المرء مجموعة غرائز (أي: طبائع نفسية) مؤتلِفة من انطباع فِكْري إما جِبِلي في أصل خِلْقته، وإما كَسْبي ناشئ عن تَمرُّن الفِكر عليه وتقلُّده إياه لاستحسانه إياه عن تَجرِبة نفْعه، أو عن تقليد ما يُشاهِده من بواعث محبة ما شاهد، وينبغي أن يُسمَّى اختيارًا من قول أو عمل لذاته، أو لكونه من سيرة مَن يحبه ويقتدي به، ويُسمَّى تقليدًا، ومحاولته تُسمَّى تخلُّقًا. قال سالم بن وابصة:عليك بِالْقَصْدِ فيما أنتَ فاعلُه إن التخلُّق يأتي دونه الخُلُق[6].

3-وعرفها الجرجاني بقوله: صفة في النفس تظهر آثارها في الكلام والسلوك العملي والمظهر الخارجي والصحبة المختارة [7].والمقصود بذلك أن الخلق عبارة عن أمر حسن أو قبيح كامن داخل النفس، تصدر عنه الأعمال والتصرفات بتلقائية ويسر من غير حاجة إلى تفكر وتأمل، فكأنه طبيعة وسجية، فمن يبذل المال بسماحة وعفوية يسمى كريماً، ومن يتجاوز عن المخطئ برفق ولطف فهو متصف بالحلم.أما من يتكلف البذل والإنفاق أو المسامحة والعفو عند الغضب فلا يقال بأن خلقه السخاء أو الحلم. وبهذا يظهر الفرق بين (الخلق) (والتخلق).أما من يظهر منه الخلق أحياناً أو نادراً فلا يوصف بذلك الخلق كمن يصدر منه العدل في حالة عارضة.و (التخلق) بالأخلاق الحسنة مطلوب، وقد يسمى (الخلاق) وهو (ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه) [8]، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على التخلق ليتعود الإنسان عليه ويرسخ في نفسه بكثرة التكرار، قال صلى الله عليه وسلم: (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه)[9].(وتظهر آثارها) أي أن الأصل في الأخلاق أنها كامنة داخل النفس، ولا يعرف وجودها إلا بظهور آثارها، وفي الغالب أن الإنسان مهما حاول إخفاء أخلاقه الراسخة فيه فإنها تظهر، وخاصة في حالات الإلجاء والمزاحمة، كمن يبتلي بمن يغضبه وهو قادر على الانتقام والانتصار ومع ذلك يحلم ويتجاوز، وكمن يتهيأ له كسب محرم فإن كان عفيفاً ظهرت صفة القناعة فيه، وإن لم يكن كذلك ظهرت في تصرفاته صفة الجشع والحرص، وقد جاء في بعض الآثار (من أسر سريرة ألبسه الله رداءها) [10]، ويروى عن عثمان رضي الله عنه قوله: (من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله منها رداء يعرف به) [11].وقديماً قال الشاعر: ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم[12]

ثانيا– الأخلاق في السنة النبوية :أما في السُّنَّة المطهَّرة، فقد استخدمت لفظة الخُلُق كثيرًا: ومن ذلك قول عائشة رضي الله عنها في وصْف خُلُق الرسول صلى الله عليه وسلم: ((كان خُلُقه القرآن))[13] أي: متمسِّكًا بالقرآن وبآدابه، وأوامره ونواهيه، وما يَشتمِل عليه

---

[6] التحرير والتنوير؛ الطاهر بن عاشور (9: 171، 172)، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس

[7] انظر التعريفات للجرجاني ص 101.

[8] المفردات للراغب 158.

[9] صحيح الجامع الصغير رقم 2328.

[10] كشف الخفاء للعجلوني 350/2.

[11] الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية 300/1، وقال عنه إسناده ضعيف والصحيح وقفه، ومراده أنه لا يصح رفعه للنبي صلى الله عليه وسلم، ويصح موقوفاً على عثمان رضي الله عنه.

[12] بيت من معلقة زهير بن أبي سلمى.

[13] أخرجه أحمد (23460) والحاكم (2: 393) وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (4811).

من المكارم والمحاسن والألطاف[14].ومنه: قوله صلى الله عليه وسلم: (البِرُّ حُسْن الخُلُق)[15]. وحُسْن الخُلُق هو التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدَّب بها عبادَه في كتابه، وقد قيل: "إن الدين كله خُلُق"[16].ومنه: قوله صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)[17]. فالأخلاق جوهر الإسلام وروحه السارية في جميع جوانبه وقد قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهداف رسالته عليه في قوله ﷺ(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[18] وقد قال ابن خلدون في مقدمته (الظلم مؤذن بخراب العمران)، فبقاء الأمم ببقاء أخلاقها، ولهذا قال شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله: وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإنْ هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا إذاً، فهدف الإسلام، هدف أخلاقي وقد قال الله تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم (وإنك لعلى خلق عظيم)[(1)].

ثالثا:علامات الأخلاق وآثارها على المسلم: المراد بها تلك الأمور الظاهرة التي تدل على وجود خلق معين أو تشير إلى وجود ذلك الخلق قطعاً أو ظناً.(فليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل، وهو يبذل لباعث أو رياء) [(19)].والمسلم مطلوب منه أن يبتعد عن الألفاظ والأعمال والمظاهر التي تؤدي إلى اتهامه بالخلق الهابط، كما جاء في بعض الآثار (من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن) [(20)].

وأبرز ما يدل على أخلاق الإنسان أربعة أمور:

1– الكلام:فإن الإنسان صندوق مقفل فإذا تكلم أبان عما هو كامن داخل نفسه، ولذلك قيل في وصف اللسان بأنه (أداة يظهر بها البيان وشاهد يخبر عن الضمير...) [(21)].وقد تعارف الناس على أن الألفاظ والعبارات التي يفوه بها الإنسان تدل على أخلاقه – غالباً – فإذا تكررت منه تلك الألفاظ ترجح أنه متصف بذلك الخلق الذي تدل عليه ألفاظه، فخلق الصدق يعرف بكلام صاحبه، وكذلك خلق الكذب والغيبة والنميمة.

وبذاءة اللسان تدل على الوقاحة، وحسن القول يدل على الحياء وعفة النفس، وهذا ما أشار إليه بعض العرب بقولهم: (إذا ثبتت الأصول في القلوب نطقت الألسنة بالفروع)[(22)].ولولا أن اللسان معبر عن الأخلاق الكامنة لما أمر الله بإقامة الحد على القاذف، ولما أوجبت الشريعة تعزير شاهد الزور، ونحو ذلك من العقوبات الدنيوية والأخروية المترتبة على عمل اللسان، حتى قال بعض أهل العلم:

---

[14] انظر لسان العرب (10: 87)، وجامع العلوم والحكم؛ لابن رجب (2: 99).

[15] أخرجه مسلم (4633) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

[16] أخرجه أحمد (795)، وأبو داود (4062) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال المنذري: حسن صحيح.

[17] عون المعبود؛ العظيم آبادي (12: 343)، دار الفكر - بيروت

[18] السنن الكبرى للبيهقي , ح **20839** , ج10, ص 102

[(1)] **سورة القلم آية 4**.

[(19)] التعريفات 101.

[(20)] ذخيرة الحفاظ لابن القيسراني 932/2.

[(21)] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان البستي ص 43.

[(22)] جمهرة خطب العرب 291/3 ذكره الأصمعي عن بعض الأعراب.

(إذا أردت أن يُستدل على ما في القلوب فاستدل عليها بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب شاء صاحبه أم أبى، قال يحيى بن معاذ: "القلوب كالقدور تغلي بما فيها وألسنتها مغارفها" فانظر الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك به مما في قلبه حلواً أو حامضاً وعذباً أو أجاجاً وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه، أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك) [23].

2- السلوك العملي:والمراد به الأعمال والتصرفات التي تجري من الإنسان، ودلالتها على الأخلاق بينة، فالإنفاق بسخاء دليل الكرم، والإمساك عن العطاء دليل البخل، والانفعال السريع دليل الغضب، ولين الجانب والأخذ بالأسهل دليل الرفق كما أن القسوة والشدة دليل العنف.ويدخل في السلوك العملي جميع أعمال الجوارح كاليد بطشاً وكتابة وكذلك عمل القدمين والعين والبطن والفرج، ولا يستثني من الجوارح هنا إلا اللسان لاختصاصه الكبير في الدلالة على الأخلاق، ولكونه أسرع الجوارح حركة وأكثرها إبانة عن أخلاق صاحبه.

3- المظهر الخارجي:والمراد به هيئة الإنسان وملبسه وما يصنعه بشعر رأسه ولحيته وشاربه وما يضعه في أصابعه أو معصمه أو رقبته ونحو ذلك مما له علاقة بالمظهر الذي يظهر به الإنسان أمام الآخرين،وهذا مؤشر على الخلق الكامن وليس دليلاً مثل الكلام والتصرفات العملية.ومن المعلوم بداهة أن لو ذهب إنسان إلى أمير أو ملك بثياب النوم أو ملابس السباحة مثلاً لطرد وعوقب؛ لما في هذا المظهر من دلالة على الاستخفاف، ولو ذهب شاب يخطب فتاة وهو يرتدي الزي الرياضي لرفض ووُبِّخ لما في مظهره من دلالة على ازدراء المخطوبة وأهلها.بل إن المظهر الخارجي هو أول إشارة تفيد عن بعض أخلاق صاحبه، وأول انطباع يرتسم في أذهان الآخرين عنه.ولخطورة المظهر الخارجي ولدلالته على الكامن من أخلاق صاحبه (لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال)[24]، وأخبر صلى الله عليه وسلم أن (من تشبه بقوم فهو منهم)[25]، وحذر أهل الإسلام من الألبسة الشاذة في لونها أو تفصيلها فقال صلى الله عليه وسلم: (من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة)[26].ومن أوضح الأدلة على أن المظهر الخارجي للإنسان يدل على خلقه نهي النبي ﷺ عن إسبال الرجل ملابسه خيلاء,فهو من الكبر الذي يبغضه الله تعالى، قال ﷺ: (وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة)[27].

4- الصاحب والصديق:هذا مؤشر على أخلاق الشخص، إذ من المعلوم – في غالب الأحوال – أن الإنسان يصاحب من يناسبه في الطباع والأخلاق، أما الصداقة فلا تكون ولا تستمر في أكثر الأحوال إلا إذا توافقت أخلاق الطرفين وتشاكلت طباعهما، كما قال

---

[23] الجواب الكافي لابن القيم ص 139.

[24] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 2207/5.

[25] أخرجه أبو داود في سننه 44/4 وسكت عنه فهو صحيح عنده.

[26] أخرجه ابن ماجة 1192/2 وهو صحيح، انظر صحيح بن ماجة للألباني رقم: 2921.

[27] جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه 56/4 وهو صحيح، انظر صحيح أبي داود رقم: 4084.

تعالى: (قل كل يعمل على شاكلته) [28].أي كل أحد من الناس يصبو إلى ما يناسبه ويميل إلى من يماثله خلقاً وطبعاً، وكل امرئ يهفو إلى من يحبه، فالنفوس الزكية ذات الأخلاق المرضية تنجذب بذاتها وهمتها وأعمالها إلى أصحاب الصفات العلية، والنفوس السافلة تنجذب إلى من هو أدنى وأسفل، والواقع المحسوس يشهد بهذه الحقيقة، فصاحب النفس الشريفة لا يرضي من الأشياء والأحياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحسنها عاقبة، بعكس صاحب النفس الهابطة فإنه يحوم حول الهابطين ويجري مجراهم في البحث عن الأقذار الخلقية كالظلم والفواحش، وهذا شأن كل النفوس طيبة كانت أو خبيثة أن فيها ميلاً إلى ما يناسبها ويشاكلها، وتعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته[29].

وفي هذا المعنى قالت الحكماء (الصاحب ساحب) و (قل لي من تصاحب أقل لك من أنت)، وقال شاعر:

وما الغي إلا أن تصاحب غاوياً	وما الرشد إلا أن تصاحب من رشد
ولن يصحب الإنسان إلا نظيره	وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد[30]

وقال بعض العلماء: (إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء من تقلبه وسكونه هو الاعتبار بمن يحادثه ويوده، لأن المرء على دين خليله، وطير السماء على أشكالها تقع، وما رأيت شيئاً أدل على شيء—ولا الدخان على النار—مثل الصاحب على الصاحب) [31].

رابعا– مصدر الأخلاق:هل الأخلاق فطرية أم مكتسبة؟ هذا السؤال هو الذي تحدد إجابته مصدر الأخلاق عند الناس، فهناك من ذهب إلى أن مصدر الأخلاق هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهناك من ذهب إلى أن المجتمع هو صانع أخلاق الأفراد، أي أن الأخلاق كلها مكتسبة.وكلا القولين أخذ بطرف وأهمل الطرف الآخر، وإيضاح ذلك كما يلي:

1– هناك أدلة تدل على أن بعض الأخلاق فطري خلقه الله في نفس الإنسان ومنها قول النبي ﷺ لأشج عبد القيس(إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)[32]، وفي سياق آخر أن الأشج قال: (يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: بل الله جبلك عليهما،قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله) [33].ومن الأدلة على فطرية بعض الأخلاق حديث النواس بن سمعان قال:سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)[34].

---

[28] الاسراء، 84.

[29] أنظر زاد المعاد 196/4، وبدائع الفوائد 406/2، وعدة الصابرين 48، والفوائد 178 ومدارج السالكين 371/2.

[30] روضة العقلاء 123.

[31] المصدر السابق 108.

[32] أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عباس 48/1.

[33] أخرجه أبو داود في سننه 357/4 وسكت عنه، وأخرجه أحمد في مسنده 22/3 و 205/4.

[34] أخرجه مسلم في صحيحه 1980/4.

ومن هذه النصوص نستنتج أن الفطرة من مصادر الأخلاق، بمعنى أن الله أوجد في النفس الإنسانية أخلاقاً في أصل خلقتها،وهي توجد مع الإنسان منذ ولادته وترسخ وتقوى بما يناسبها من أعمال كسبية، وتضعف وتتلاشى بالإهمال،أو باكتساب ما يضادها من أخلاق.

2- ومن الأدلة على أن بعض الأخلاق مكتسب:أ- الدعاء النبوي في استفتاح الصلاة، ومنه قوله ﷺ: (اللهم أهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت،وقني سيئ الأعمال وسيء الأخلاق لا يقي سيئها إلا أنت)[35]ولو كانت كل الأخلاق فطرية موجودة في النفس لما دعا النبي ﷺربه أن يهديه لتحصيل الأخلاق الحسنة وأن يقيه الأخلاق السيئة.

ب- ومثل ذلك دعاؤه ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء)[36]، فهذه استعاذة من أخلاق يمكن أن تحصل بالاكتساب كما تحصل الأعمال وكما تحدث الأهواء.

جـ- المتأمل في طباع الناس وأخلاقهم وخاصة الأطفال يرى أن هناك جملة من الأخلاق الحسنة أو الرديئة موجودة فيهم خلقة،ولا يوجد دليل على أنهم تعلموها من غيرهم، ويمكن إدراك هذا المعنى بجلاء عندما تتأمل حال طفلين شقيقين أو توأمين نشاءا في بيئة واحدة وفي ظروف متطابقة، وتجد أحدهما حاد الطبع سريع الغضب والآخر هادئ الطبع فيه أناة، أو أحدهما كريم سخي، والآخر شحيح ممسك.

3- اعتبار بعض الأخلاق جبلي وبعضها مكتسب يتوافق مع الواقع والمشاهد من أحوال الناس،وبه يحصل إعمال جميع الأدلة الشرعية، قال ابن القيم بعد أن أورد حديث أشج عبد القيس السابق:(فأخبر النبي ﷺأن الله جبله على الحلم والأناة،وهما من الأفعال الاختيارية، وإن كانا خلقين قائمين بالعبد،فإنه الأخلاق ما هو كسبي ومنها مالا يدخل تحت الكسب، والنوعان قد جبل الله العبد عليهما وهو سبحانه يحب ماجُبل عبده عليه من محاسن الأخلاق ويكره ما جبله عليه من مساوئها فكلاهما بجبله وهذا محبوب له وهذا مكروه)[37].

4-أن الأخلاق الفطرية كالحلم والأناة والكرم والشجاعة تنمو بتأكيدها وتثبيتها بما يناسبها من الاكتساب،وتذوي بالإهمال أو بالاكتساب المضاد، فالمفطور – مثلاً – على الأناة تزداد هذه الخصلة الأخلاقية لديه بالاكتساب، وقد تضعف إذا أهملها، أو اكتسب ما ينافيها كالعجلة والطيش والتسرع.بقي أن يشار هنا إلى أن الأخلاق الجبلية أو المكتسبة لها تعلق بمكونات الإنسان الأساسية، فمنها ما له علاقة باللسان كالصدق والكذب، ومنها ما هو متعلق بالعقل والإدراك كالفهم والحكمة والسفه والحماقة، ومنها ما هو متعلق بالجوارح كالخيلاء والرشوة والعنف والإيثار والرفق.

---

[35] أخرجه النسائي من حديث جابر بن عبدالله 129/2، انظر صحيح النسائي للألباني 895.

[36] أخرجه الترمذي في سننه 575/5، وهو في صحيح الجامع برقم: 1298.

[37] شفاء العليل ص 129.